أبعاد الشكل الدائري في المدينة العربية الاسلامية في العصر العباسي الأول ١٣٢-٢٤٧هـ/٧٤٩-٨٦١م

أ.د. طه خضر عبيد

جامعة الموصل / كلية التربية للعلوم الانسانية

تاريخ الاستلام ٢٠١٢/١١/٢٧ تاريخ القبول ٢٠١٣/٣/٦

الملخص

تعددت اشكال المدن وتصميمها واتخذت اشكالا هندسية نظامية وغير نظامية منها المربع والمدور والمستطيل وغيرها ، ويسعى البحث الى القاء الضوء على الشكل الدائري للمدن العربية الاسلامية وابعاده العسكرية والطبيعية والسياسية والاقتصادية ، وقد اتخذنا من بغداد أنموذجاً للمدن المدورة والتي انتشر فيها بناء المدن في العصر العباسي كملطية وطرسوس وزبيد وغيرها.

أولا : أشكال المدن وعوامل تحديده

تعد المدينة ظاهرة حضارية يصعب فصلها عن المستوى الحضاري العام الذي مرت به امة ما ، وهي تعبير صادق عن المرحلة الحضارية ، وقد تعددت أشكال المدن وتصميمها واتخذت أشكالا هندسية نظامية وغير نظامية منها المربع والمدور والمستطيل وغيرها .

وحظيت الحضارات القديمة في العراق وبلاد الشام ومصر واليمن والجزيرة العربية بالاهتمام بشكل المدينة ، ويهمنا الشكل الدائري أو المدور ، ففي مصر القديمة مثلا كانت علامة المدينة في اللغة الهيروغليفية عبارة عن خطين متقاطعين بزوايا قائمة ويحيط بها دائرة ⊕ ، ويرى علماء الآثار واللغة المصرية القديمة أن العلامة أو الرسم يشير الى أن المدينة تقع في نقطة تتقاطع عندها الطرق وأنها محاطة بسور أو سياج دائري يحميانها من أخطار الفيضان ويحميان سكانها من الأعداء [١]، وهناك من تفسيرات متعددة لعلامة المدينة هذه ؛ منها أنها تعكس خصائص المدينة في تلاقي العناصر المادية من طرق ومتاجر إلى جانب أنها ملتقى الأخطار وان الدائرة إما أن تكون خندقا أو سورا أو كلاهما معا تعني الحاجز النفسي والخلقي الذي يحمي مجتمع المدينة عما حوله ، كما تعني العلامة المواصلات إلى جانب اللغة [٢] ، كانت مدن العراق القديم هي الأخرى اتخذت من الشكل الدائري تصميما لها وخاصة مدينة بابل [٣] ، وآخر تلك المدن قبل الاسلام كانت مدينة الحضر " مدينة الشمس " المدورة التي لا تزال آثارها وشكلها الدائري قائما إلى الآن وتقع جنوب مدينة الموصل بمسافة (١١٠) كيلومترا [٤] ، أما في اليمن فظهرت مدن مدورة عديدة مثل " براقش" المعينية [٥] ، ونشق البيضاء ومدينة جفري " الدريب" أو ويلا في شبوة ومدينة البربر ، وكانت اليمن مزدهرة العمارة كما هو معلوم [٦] .

وفي بلاد الشام ظهرت الأشكال الهندسية المدورة في الكنائس كما هو الحال في كنيسة مريم العذراء في أنطاكية [٧] ، نجد أن العرب قبل الاسلام كانوا قد امتلكوا فكرا تطبيقيا عمرانيا ناضجا وأصيلا استمد أركانه من طبيعة بلدانهم وأفكار رجالهم مستندين في الوقت نفسه على ما يمتلكونه من ارث حضاري قديم ومن حضارات سادت في بلدانهم ، وأول إشارة إلى شكل المدن والعمران وتخطيطها قبل الاسلام نجده في مكة المكرمة التي كان على شكل مربع [٨] ، وكان لعظمتها وقدسيتها عند الناس وساكنيها أنه لم يتجرأ احد منهم على أن يبني بناء شبيها بها، فكانت دورهم مدورة ، ولم يخرج عن ذلك إلا شخصا واحدا هو حميد بن زهير الذي بنى بيتا مربعا وهو بذلك قد خرج عن عادة العرب في تعظيم الكعبة فقالت عنه العرب :

ربع حميد بن زهير بيتا إما حياة وإما مماة

فاستنكره العرب وعدوه ضربا عن المألوف [٩] . ولما كانت المدن تمثل مرحلة من مراحل النضج والمستوى الحضاري للأمم ، نجد أن العرب المسلمين قد اتخذوا أشكالا عدة في

بناء مدن الأمصار والمدن الأولى ، فالبصرة كانت مستطيلة [١٠] ، والكوفة مربعة [١١] ، والقطائع مستطيلة والحلة وحمص ونابلس ومنورفة مستطيلات [١٢] ، وهناك عوامل عدة حددت تلك الأشكال من المدن ومنها :

١. الموقع والموضع من الأنهار والصحاري ومستوى الأرض باختيار المرتفعات [١٣] .
٢. تخطيط المدن بتوزيعها على القبائل أرباعا أو أخماسا أو أسباعا [١٤] .
٣. كان المقاتلون يصحبون خيولهم ودوابهم معهم التي تحتاج إلى المراعي والمياه والاحتطاب لهم لذلك بنيت المدن من القصب أولا ثم بعد حين تحولت إلى اللبن واتسمت ببساطتها ولكنها كانت بمواصفات اسلامية في اختيار المسجد الجامع ودار الامارة أولا ومركزا ثم خططت محلات السكن والأسواق وربما أضيفت الأسوار والخنادق أحيانا ولم تكن الأخيرة ضرورة ماسة لأن السكان في الأمصار الأولى أصلا مقاتلين ويمتلكون التحصين البشري في حماية مدنهم [١٥] .
٤. إن الأمصار والمدن الأولى لم تكن مدن عواصم أول الأمر بل معسكرات متقدمة فالطابع الحربي هو الذي كان وراء اختيار أشكالها .
٥. أهمية المدينة والهدف من بنائها، فالأمصار الأولى كانت عسكرية ، في حين بنيت مدن لتكون مراكز وعواصم للخلافة كما في بغداد وغيرها .
٦. ويجد الباحث أن هناك تطورات في الحضارة العربية الاسلامية أدت إلى نماء وازدهار المدن وعمق ذلك الإمكانات والثروات التي أصبحت من عوامل ازدهار المدن واتساع أحجامها وكثرة سكانها [١٦] .

ثانيا : بغداد المدورة وأبعادها الحضارية

كان تخطيط شكل مدينة بغداد الدائري اتجاها جديدا في بناء المدن العربية الاسلامية كما توقف عنده المؤرخون العرب [١٧] ، ويعد هذا التخطيط والتصميم من نتاج الاستنباط العربي الاسلامي الصميمي الذي عرف به الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٥م) ولم يكن مقتبسا من مدن أخرى معاصرة لبغداد أو قبلها لا سيما عند الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية ، وليس أدنى شك من ذلك ، فلو كان مقتبسا لأشارت اليه مصادرنا فضلا عن انه لا يشكل عيبا أو نقصا إذا كان قد جعلها مدن مدورة أو قريبة من المدورة ولذلك وصفت بغداد بأنها :" ليس بالمعمورة مدينة مدورة مثلها [١٨] ، وهي " لا تعرف في جميع أقطار الدنيا مدورة غيرها " [١٩] .

لابد من قول الحقيقة بعيدا عن التشويه والركض وراء آراء من لا يعرفون عن تاريخنا الدقة والتفاصيل وإنما يحالون إفراغه من جوانب الأصالة والقوة ولمصلحة أو بدوافع

تكمن في تكوينهم الفكري والثقافي القائم على افتراضات يرونها صحيحة ، فضلا عن غلبة سيادة الحضارات الإغريقية والبيزنطية على آرائهم وتوجهاتهم .

يعد الخليفة أبو جعفر المنصور أول من اتخذ الشكل الدائري في بنائه مدينة بغداد المدورة ، فقد اصطحب معه العلماء والفقهاء والمختصين من مهندسين وفلكيين وغيرهم، وقام بنفسه بالبحث عن الموقع والموضع الذي أراده لمدينته الجديدة ، بعد أن سكن عواصم عباسية قبلها كالكوفة والانبار وهاشمية الكوفة وهاشمية الانبار [٢٠]، وكان الخليفة يمتلك رؤية وحسا سياسيا واقتصاديا وإداريا عالي المستوى ،وتميز بتفكير عميق وعقل راجح وخبرة واسعة اكتسبها في تجواله وعمله في بلاد عديدة قبل توليه الخلافة ، ولم يكن مقلدا يريد أن يجعل من مدينته نسخة من مدينة أخرى ، فهو قد خطط واشرف ونفذ أفكاره على بناء مدينته المدورة بعد أن هيأ لها المستلزمات المادية والعلمية والمعنوية ، فقد جمع المهندسين والبنائين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرض فمثل لهم صفتها التي في نفسه[٢١]، وهي المدورة وكتب إلى كل بلد بحمل من فيه ممن يفهم من أمر البناء ولم يبتدئ البناء حتى تكامل بحضرته من أهل الصناعات ألوف كثيرة ثم اختطها وجعلها مدورة [٢٢] ، وكان تدخل الخليفة أبو جعفر المنصور في اختيار الموقع والموضع الجديد لمدينته ورسم تخطيطها كان يعني انه يريد تحقيق أغراضا ينشدها ويحدد التنظيمات التي كان يخطط لها لدولته ومدينته الجديدة وهذا يقودنا إلى القول بان كل ما قام به الخليفة قبل البناء وبعده إنما هو تعبير عن أفكاره السياسية والإدارية ولعل من ابرز مظاهر تأثيره الشخصي في اختيار بغداد هو اختياره شكلها المدور الذي لم يكن شائعا حتى عده البعض من خصائص بغداد وحدها [٢٣] ، اعتمد الخليفة الجانب العلمي التطبيقي باختياره أنموذج مصغر لمدينته المقترحة وذلك بتصميم " ماكيت " وفي ذلك يقول الشروي :" ... أن المنصور لما أراد بناء بغداد وسط المكان الذي قدر أن يجعل مدينته ، أمر أن يوقد هناك واخذ حبلا فمده على المقدار الذي أراد أن تكون استدارتها ، ثم أمر بطرح الرماد فطرح ثم نقص من مقداره أربعين ذراعا ثم أدار خطا آخر وجعل من الخطين خندقا وجعل فتحته أربعين ذراعا ثم عمل السور الذي خلف الفصيل وعرضه من أسفله ثمانية عشر ذراعا وعرض أعلاه ثمانية اذرع وجعل على ذراع منه ما يلي الخندق الشرفات فصار الباب خمسة اذرع ليمشي عليها الناس" [٢٤] .

اختار الخليفة موقع قصره في وسط مدينته المدورة ثم بنى المسجد بجانبه ، ولا ريب أن المسجد الجامع ودار الامارة كان وسط الأمصار الاسلامية الأولى التي أنشأها العرب المسلمون في البصرة والكوفة والفسطاط غير أن بغداد اختلفت عن تلك الأمصار من أن يكون القصر أولا وهو المركز ثم بني المسجد الجامع عليه [٢٥] . وان وضع القصر في مركز المدينة الجديدة هو تعبير عن الطابع الأساسي الذي انشده أبو جعفر المنصور فالقصر هو

المركز والقلب ويقع على بعد متساو وواحد عن جميع الأطراف لأن المدينة مدورة وتحقق هذا الهدف ، والمدورة لها معان سوى المربعة وذلك لأن المربعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها اقرب اليه من البعض ، والمدور من حيث كان متساويا لا يزيد هذا ولا على هذا ولا هذا على هذا " [٢٦] ، فالخليفة هو المحور وقصره هو الأساس بل حتى المسجد الجامع كيف تبعا لذلك التخطيط أي القصر وليس العسكر .

إن الإعداد والتخطيط والتنفيذ لبناء مدينة بغداد المدورة اختلف كليا عن مدن الأمصار الاسلامية الأولى؛ لأنها خطط لها أن تكون عاصمة للخلافة العباسية والعاصمة ليست كأية مدينة أخرى ويظهر ذلك جليا من خلال :

١. إن الخليفة نفسه اختار موقعها وموضعها بعد عدة جولات في مواقع ومواضع أخرى واختارها لصلاحية البناء وهو الذي صمم ورسم شكلها وخططها ووضع اللبنة الأولى بيده قائلا :" ابنوا على بركة الله"[٢٧] .
٢. احضر العلماء والفقهاء والفلكيين والمهندسين وعمال البناء والصناع ، وأوصى أن يحمل اليه منهم من كل الأقاليم إليها ، وبذلك استعان بأصحاب العلم والخبرة .
٣. الإشراف المباشر من الخليفة بنفسه ومن كلف ببنائها من العلماء والفقهاء أمثال : الحجاج بن ارطأة الحاسب والطبري وإبراهيم الفزاري وأبو حنيفة .
٤. رصد لها الأموال الطائلة التي قدرت ب (٤٨٨٣) أو (٤٨٣٣) ألف درهم أي ما يعادل ١٢٣مليون دينار .
٥. هيأ لها مواد البناء والأبواب وحدد مدة البناء التي استغرقت أكثر من خمس سنوات (١٤٥-١٤٩هـ/٧٦٢-٧٦٧م) [٢٨] . وتعني مدة البناء هذه الكثير في أنها بنيت لتبقى ودليل على عظمة البناء وأحكامه .

كانت بغداد أول عمل عمراني ومعماري للخلافة العباسية حيث اختطت سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م لتكون عاصمة الخلافة العباسية [٢٩] .

لقد توافرت كل الشروط الستة الواجب توافرها في إنشاء المدن الاسلامية وفق ما جاء به المفكرون العرب المسلمون وهي : سعة المياه العذبة من دجلة والفرات والأنهار والقنوات التي شقت للمدينة ، وإمكان الميرة المستمدة في القرب من المرعى والاحتطاب ، وحصانة الموقع " وأنت على دجلة والفرات لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة فإذا قطعت الجسور وخربت القناطر لم يصل إليك عدوك "، وتحصن منازلها من الأعداء فأحاطها سورين وخندق [٣٠] .

الأبعاد السياسية والحضارية للشكل الدائري :

أما لماذا الشكل الدائري أو المدور بهيئة الكرة أو الطيلسان أو الدرهم والرغيف والدنيا؟ فالجواب كما نرى للأسباب الآتية :

١. إن يقع القصر وسط المدينة في مركزها ، فيجعل من المسافة بينه وبين مختلف أطراف المدينة متساوية عكس التخطيط المربع أو غيره الذي تزداد المسافة بين أركان المدينة ، ويعني ذلك الحكم المركزي والنظرة في المساواة بين الناس والرعية وإمكانية الإشراف والمتابعة ، وما بناء القصر في الوسط إلا ليدل على الناحية السياسية التي أرادها الخليفة أبو جعفر المنصور من هذا التصميم ، وان مركز الحكم والمسجد الجامع والدواوين يعبر عن النواحي الدينية والادارية والاقتصادية [٣١] .

٢. إن الشكل المدور فيه ميزة حربية في إمكانية الدفاع عن المدينة من جميع الاتجاهات وان مدى الرؤية والمراقبة من الأبراج والأبواب يتيح للمقاتلين دقة وإحكام السيطرة والدفاع[٣٢] .

٣. إن الشكل الدائري غير المربع والمستطيل الذي تحجب زواياه مدى الرؤية عن المدينة وبذلك يحقق الأمن والأمان لسكان المدينة المدورة التي اختيرت عاصمة ، لأن المقاتلين موزعين على السكك أو المحلات مع قادتهم وتبدأ من المركز إلى الأطراف ، فالدفاع يكون أقوى فالكل مرتبطون بالمركز ويكون دفاعهم عن المدينة بالقوة الروحية والمادية نفسها ولذلك أحكمت الاستحكامات العمرانية من التحصين كالأسوار والخنادق والأبراج والأبواب فشكلت منافذ للتحصين البشري القائم في المدينة [٣٣] .

٤. بعد اقتصادي ملازم للشكل الدائري ، لأن التكاليف في الشكل الدائري المنتظم هي اقل من كلفة الأشكال الهندسية الأخرى كالمستطيلة والمربعة ، فتجد أن تكاليف المدور اقل بنسبة (١١,٣٧%) من كلفة الشكل المربع [٣٤] ، وهذا يتماشى مع سياسة الخليفة أبي جعفر المنصور الذي عرف عنه انه كان قديرا في القضايا الاقتصادية حتى انه لقب بـ " الدوانيقي" فكان يقتصد في النفقات بدءا من التخطيط والإعداد والإشراف على بناء مدينته المدورة إلى اصغر التفاصيل وان مراجعة تكاليف بناء مدينة بغداد يعكس لنا الأموال الطائلة التي صرفت على البناء من جهة وعلى الإمكانات الاقتصادية التي كانت تمتلكها الدولة من جهة أخرى [٣٥] .

٥. البعد الديني في الشكل الدائري يظهر من صورة وهيئة الفلك بشكل واضح ومتطابق مع المواصفات الدينية بين السماء والأرض ، وان الله سبحانه وتعالى خلق كل روح مدورة الشكل كما يرى البعض ، وأنها على صفة الكرة وهنا تتلاقى كثير من الجوانب مع الجانب الديني [٣٦] وان إطلاق تسمية بغداد " مدينة السلام " عندما أطلق الخليفة أبو

جعفر المنصور على مدينته أول من بدأ ببنائها باسم " الله" لأنه أراد من تلك التسمية أنها مدينة الله تعالى لان الله هو السلام المؤمن ، وقد جرى لها هذا الاسم على ضرب الدنانير والدراهم وما تقع به الاشربة في الكتب[٣٧] .ولما كانت الدنيا مدورة ومدارها على ثلاث دورات الدرهم والدينار والرغيف [٣٨] ، وكان ذلك التصور له علاقة بالخليفة المنصور دينيا واقتصاديا [٣٩] . ومن يرى أن الشكل المدور والخطة الدائرية يمثلان نظريا " أفضل الأشكال بالنسبة لسهولة الاتصال وعدالته بين المركز والأطراف الخارجية " [٤٠] ، والذي يعبر عن الالتزام بمبدأ العدل الاسلامي .وسهولة إيصال الخدمات وأحكام دخول الداخلين والخارجين اليها من الأعداء والأصدقاء .

٦. البعد الاجتماعي : يحقق الشكل الدائري قوة في التماسك الاجتماعي بين سكان المدورة تبعا لمحلات سكناهم وشوارعهم ومساجدهم وأسواقهم وانبثق ذلك من القصر في المركز مما عمق الاتصال الاجتماعي بطريقة ناضجة حققت أهداف الخليفة مما يزيد العلاقة بين الخليفة ورعيته وتظهر في كل الفعاليات المتنوعة في المدينة [٤١] .

٧. جمالية الشكل الدائري المنتظم الذي يميز الذوق الرفيع للطراز الجديد في تفاصيل العمارة وتماسكها وخصوصيتها وبذلك تلتقي العناصر المادية مع الأفكار لتشكل دائرة .

٨. إن المدن المدورة إبداع عراقي أصيل نجده واضحا في المدن العراقية وفي مختلف مراحل التاريخ.

لا نتفق مع الآراء القائلة بتأثير الفرس على تخطيط مدينة بغداد المدورة والتي ترى في الشكل الدائري عملية فصل بين الخليفة ورعيته على غرار الحكم الساساني ، وتصفه بأنه مقاما ساميا يصعب الوصول اليه كما أن ضخامة القصر تظهر أبهة الملك وان فكرة الاستدارة وحصر دور الناس في أحياء منفصلة يمكن غلقها ليلا وحراستها بدقة تشير إلى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس وان ذلك يتعارض مع أفكار الخليفة أبي جعفر المنصور ودينه الاسلامي والذي لا تظهر بقية بنية المدينة بالتشابه لا بالشكل ولا بالوظيفة مع المدينة الساسانية .ولا بد من مناقشة أمر هام هو أن موقع بغداد وموضعها قد أسهم في اتخاذ الشكل الدائري لا سيما وقوعها غرب دجلة وقريبا من الفرات في منطقة سهلية [٤٢] .

لا يخلو الشكل الدائري من عيوب وسلبيات لا تظهر مباشرة مع البناء ولكنها قد تتأخر بسبب إن اتساع حجم المدينة ونموها يستوجب التفكير باستحداث مدينة متقابلة كما حصل في بناء الخليفة أبي جعفر المنصور لمدينة الرصافة في الجانب الشرقي التي خصصها لابنه محمد المهدي وجعلها معسكرا [٤٣] ، .إن مثل هذا التفسير لا يدفعنا إلى التطرف في الفهم أو الحكم فنخرج بانطباع خاطئ مؤداه أن الشكل الدائري والأسوار التي

تحيط بالمدينة تمثل نهايات للطرق المتقاطعة في داخلها وتحول دون امتداد تلك الطرق خارج المدينة ، ومن بين تلك ما بالخطة الدائرية المكتملة التي تعترض تنفيذها بعض العقبات الجغرافية ممثلة في مواضع النمو من الناحية التضاريسية أو من خلال صلاحية الموقع للبناء كما أن النمو لا يحدث عادة بدرجة منتظمة ومنطلقا من مركز المدينة بقدر متوازن في كافة الاتجاهات مما يؤدي إلى خروجه عن الشكل الدائري (٤٤) . .كما أن من مساوئ الشكل الدائري في حالة التوسع هو هل أخذت بنظر الاعتبار المستقبل والفيضانات والمخاطر التي تتعرض لها المدينة خاصة تلك الواقعة قرب الأنهار كما هو الحال ببغداد والتي شكلت الفيضانات مخاطر طبيعية على ساكنيها واقتصادها وتزداد خطورتها في حالة انهيار أو انكسار الأسوار والخنادق وإهمال تجديد الاستحكامات (٤٥) .

ثالثا: تأثير تخطيط بغداد الدائري على المدن العربية الاسلامية

روي على لسان الخليفة أبي جعفر المنصور رواية تقول :" بغداد إنا مبنيها ومسكنها ، ثم لتكونن أعمر مدينة في الأرض ثم لأبنين بعدها أربع مدن لا تخرب واحدة منها أبدا فبناها وهي الرافقة ولم يسميها وبنى ملطية والمصيصة وبنى المنصورة في السند وجعلها مدورة " (٤٦) . أما عن تأثير واثر تخطيط الشكل المدور في بغداد على المدن التي بناها العباسيون ، فإن الشكل الدائري قد لقي استحسانا وقبولا لمزاياه الجيدة من جميع النواحي ومثل أنموذجاً سارت عليه تخطيطات مدن عدة ومنها تلك التي أمر الخليفة أبو جعفر المنصور ببنائها في عهده فضلا عن المدن التي بناها الخلفاء هارون الرشيد(١٧٠-١٩٣هـ/٧٧٥-٨٠٩م)والمأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣=٨٣٣م) ، ومن المدن المدورة مدينة ملطية التي تقع قرب الضفة اليسرى من نهر الفرات الأعلى عند تقاطعه مع نهر قباقب " تخما صو Tokhma su " وتحيط الجبال بالمدينة التي كانت بالأساس مدينة بيزنطية ثم تعرضت للخراب والدمار وأعاد بناءها الخليفة أبو جعفر المنصور وتعد في طليعة المدن التي بناها فقد أمر قائده عمه صالح بن علي العباسي سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م بتخطيطها وكانت مدورة ونقل اليها الفعلة والبنائين والمهندسين من إقليم الخلافة كافة ، ووفر لها الأموال ومواد البناء وقد استغرق البناء ستة أشهر ، ومما زاد في تحصينها وقوتها ذلك التحصين الطبيعي من الأنهار والجبال وسهولة الدفاع عنها ، ووفر لها الحماية البشرية ، وقد اختط في مركز المدينة المسجد الجامع وقربه الأسواق ، وبنيت المحلات السكنية على شكل خطط خاصة بالجند الساكنين القدامى والجدد ، وأحيطت المدينة بسور واحد متين أول الأمر ، وأصبحت قاعدة وثغر الجزيرة الأول ، وبقيت صامدة بوجه الأخطار البيزنطية ردحا من الزمن (٤٧).ومما يلاحظ أن ملطية بدأ البناء فيها قبل بغداد في رواية الطبري ، وفيه تناقض مع قول المنصور لابنين بعد بغداد أربع مدن ومنها ملطية ، وهذا يعني أن الشكل الدائري كان حاضرا في فكر الخليفة أساسا.

ومن المدن المدورة مدينة الرافقة التي أمر ببنائها الخليفة أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م وتقع الى جنب مدينة الرقة وهي على هيئة بغداد وأتمها الخليفة محمد المهدي[٤٨] ، وهناك رواية تبين أسباب بنائها هي انه كان في فكر ونفس الخليفة المنصور آمر سابق من العهد الأموي جعله يصمم على بناء مدينة هناك ، وجاء ذلك من خلال مرافقة والده وأخيه أبو العباس الى رصافة هشام لمقابلة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الذي حجزهما طويلا حتى قابلوه فلما هموا بالخروج من الرصافة أشار اليه احد أبنائه الذي معه بأنه سيبني بالرقة ولكن لا ينزها بل ينزلها أبناء أبنائه [٤٩] ، وبالفعل اتخذها الخليفة هارون الرشيد عاصمة ثانية له لمدة (١٣)عاما [٥٠] . والرافقة مدينة واسعة وعظيمة فيها منازل الخلفاء والأمراء وهي مدورة كهيئة الطيلسان [٥١] ، وقد بنيت اكبر وأفضل من رصافة هشام وأقام فيها الخليفة هارون الرشيد وأحيطت بالأسوار والأبواب الأربع وتركت أسماء بغداد على أبوابها وقصورها.

أما مدينة طرسوس فتقع في سهل تحيطه الجبال ومنها جبل طرسوس وتقع حولها أو تمر منها الأنهار كنهر البردان Cydus الذي يمر من وسطها ونهر اللامس Lamos ونهر سيحان ونهر جيحان ونهر البدندون ، وكان العبور اليها لا يتم إلا عبرة قنطرة أو جسر ، وبنيت المدينة في عهد الخليفة هارون الرشيد عندما أمر قائده الحسن بن قحطبة الطائي سنة ١٧٢هـ/٧٧٥م ، وقد اتخذت المدينة الشكل الدائري وهو تأثير واضح من بغداد المدورة ، ويعد هذا الشكل ملائما لبناء المدن المحصنة والواقعة على الأطراف من الدولة ،وقد بني لها سورين وخندق ووضع لها عدد كبير من الأبواب كان منها خمسة مشهورة هي باب الجهاد والصفصاف والشام وقلمية والمسدود ، ونصب عليها (٨٧)برجا وقدرت مساحتها ب (١٢)كيلومتر مربع ، وسكنها عدد كبير من السكان تجاوز المائة ألف ، وهذا التقدير جاء من رواية قاضيها الطرسوسي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م الذي يقول أن عدد دورها (٣٣)ألف دار منها ثلثها (١١)ألف للعزاب وثلثيها للمتزوجين (٢٢) ألف ، واستمرت عاصمة للثغور الشامية حتى سقوطها سنة [٥٢] .

وجاءت مدينة زبيد في اليمن التي بنيت سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م على يد القائد زياد بن إبراهيم في عهد الخليفة المأمون ووصفها مؤرخي اليمن [٥٣] ، بأنها عجيبة الموضع، وقال عنها ابن المجاور [٥٤] ، بان رسمها بشكل دائري ، وقال عنها المقدسي [٥٥] ، بأنها :" بلد نفيس ليس باليمن مثله وأنها بغداد اليمن "" ومن هذه العبارة نستدل على حقيقة تخطيطها الدائري القريب من تخطيط بغداد والمتأثر به ، مما يؤكد صلاحية الشكل الدائري في القوة والمتانة والشهرة ، ومما يذكر أن القائد زياد بن إبراهيم لما جاء إلى اليمن قادما من بغداد سنة ٢٠٣هـ/٨١٨م فقد أوصاه الخليفة المأمون باستحداث مدينة له في اليمامة ، وكان رسم بغداد وشكلها قد ارتسم لدى ابن زياد وأراد أن يبني مدينة على غرار بغداد المشهورة ، وقد ساعده على ذلك توافر شروط الموقع والموضع وتوافر مواد البناء والإمكانيات المادية [٥٦] .

أما لماذا اتخذت زبيد العاصمة اليمنية الجديدة الشكل الدائري ؟

هناك عدة أسباب قادت الى ذلك ومنها :

١. حصانة التخطيط الدائري من الناحية الدفاعية والملائمة لأوضاع اليمن وقتذاك .
٢. تأثر ابن زياد بمدينة بغداد شكلا وتخطيطا .
٣. الإرث اليمني القديم من الشكل الدائري الذي عرفت به مدن اليمن قديما ، فأصبح الشكل مألوفا .

الاقتصاد في تكاليف النفقات بنسبة (١١,٣٨%) من بقية الأشكال الأخرى كالمربع، وقصر وسهولة بناء الأسوار حولها [٥٧] .

وبذلك يظهر تأثير تخطيط بناء بغداد المدور على المدن الاسلامية ومنها زبيد والذي أكدته الدراسات الحديثة [٥٨] .

ويمكن القول أن اثر أنموذج بغداد المدور وتخطيطها يظهر واضحا على المدن العربية الاسلامية الأخرى من خلال:

١. اتخاذ الشكل الدائري .
٢. تلاقي وتطابق تخطيط المدن من الخطة والتركيب الداخلي والأسوار والخنادق والأبراج والأبواب لمدينة بغداد .
٣. التقارب في المساحة ،
٤. مدة البناء الطويلة .من ٦ أشهر إلى خمس سنوات .

وكما يقول إقليدس الإغريقي : أن تطبيق تخطيط المدينة الفضلى على الشكل الدائري من حيث تحديد الدائرة التي هي كالشمس تشع وتتطابق مع الفلك والأفق الدائري بجلالتها وعظمتها وإشعاعها الحضاري [٥٩] .

ولم يقتصر تأثير بغداد المدورة على المدن العربية والاسلامية فحسب بل أن هناك مدنا أجنبية عديدة بنيت على طراز بغداد المدورة وتأثرت بأساليب بنائها وتخطيطها وفنونها العمرانية أو استخدمت نظمها في كثير من ميادين الحياة [٦٠] .

الخاتمــة

يتضح مما سبق ان الشكل الدائري للمدن التي بنيت في العصر العباسي قد اتخذت من الشكل المدور دون غيره من الاشكال الاخرى المستطيل والمربع لما له من ابعاد سياسية وطبيعية وعسكرية واقتصادية ولذلك اصبح الشكل الدور مفضلا وذا طابع عباسي معروف.

الهوامش

(١)حسن ، سليم : مصر القديمة ، (القاهرة ، مطبعة كوثر ، ١٩٤٠)، ١٤٦/١-١٤٧ ؛ إسماعيل ، احمد علي: دراسات في جغرافية المدن ، ط٤، (القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٨)، ٤٢.

(2)Jones ,Emrys, Towns and Cities ,(Oxford universe. Pres, 1970) , pp.7-10.

(٣) لقد ظهرت المدن المدورة في العراق القديم منذ سنة ٦٠٠٠-٥٧٠٠ق .م ، لا بل أن الدور كانت مدورة ، للمزيد ينظر : دروثي مكاي : مدن العراق القديمة ، ترجمة يوسف يعقوب مسكوني ، (بغداد ، مطبعة شفيق، ١٩٥١).

(٤) ماجد، عبد الله : الحضر مدينة الشمس ، (بغداد ، ١٩٦٨)؛ سفر ، فؤاد ومحمد علي مصطفى : الحضر مدينة الشمس ، (بغداد ، وزارة الإعلام ، مؤسسة كولبنكان ، ١٩٧٤)، ٢٢.

(٥) طاهر مظفر العميد: علاقة العمارة العربية قبل الإسلام بالعمارة الإسلامية، بحث ألقي في حلقة دراسية أقامها مركز الإحياء العلمي العربي في ١٩٩٠/٢/٢٥م، ونشر في كتاب العمارة العربية قبل الإسلام وأثرها في العمارة بعد الإسلام، جامعة بغداد، ١٩٩٠م، ص٥٨.

(٦)الحداد ، عبد الله عبد السلام صالح " اثر تخطيط مدينة بغداد على تخطيط المدن الإسلامية في اليمن في العصر العباسي – مدينة زبيد نموذجا " مقدم ضمن أعمال الندوة العالمية الخامسة لدراسات الجزيرة العربية ، منشورات جامعة الملك بن سعود ، الرياض ، ٢٠٠٦.

(٧) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٢٤٧/١.

(٨) ابن جبير ، محمد بن احمد الكناني (ت٦١٤هـ): رحلة ابن جبير ، (بيروت ، دار الهلال ، د.ت)، ٧٧؛ النويري ، احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الله (ت٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب ، (القاهرة ، دار الكتب العلمية والوثائق القومية ، ١٤٢٣هـ)، ٣١٣/١؛ ابن الضياء ، محمد بن احمد بن الضياء محمد القرشي (ت٨٥٤هـ): تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة ، تحقيق علاء إبراهيم وأيمن نصر ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٢)، ١٢٢/١.

(٩) النويري ، نهاية الأرب ، ٣١٣/١؛ ابن الضياء ، تاريخ مكة ، ١٢٢/١؛ الندوي ، علي أبو الحسن بن عبد الحي : السيرة النبوية (دمشق ، دار ابن كثير ، ١٤٢٥هـ)، ١٣٥/١.

(١٠)اليعقوبي ، احمد بن إسحاق أبي يعقوب جعفر بن واضح (ت٢٩٢هـ): البلدان ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢هـ)، ١٥٩؛ إسحاق بن حسين المنجم : الآكام في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ، (بيروت ، عالم الكتب ، ١٤٠٨هـ)، ٣٩/١.

(١١) ابن الفقيه الهمداني، احمد بن محمد بن إسحاق ، (ت٣٦٥هـ): البلدان ، تحقيق يوسف الهادي ، (بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٩٦م)، ٢٠٢.

(١٢)الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (بيروت ، دار الرسالة ،)،٢٦٧/٨؛ ابن جبير ، الرحلة ، ١٦٩، ٢٠٨؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢٤٨/٥؛ القزويني : آثار البلاد وأخبار البلاد ، ٢٧٧؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ١٦٧/٢.

(١٣)كما هو الحال بمواقع ومواضع البصرة والكوفة والفسطاط .

(١٤)كما في البصرة والكوفة والفسطاط ، ينظر :ناجي ، عبد الجبار : دراسات في تاريخ المدينة العربية الاسلامية ، (البصرة ، جامعة البصرة ، ١٩٨٦م).

(١٥)البلاذري ، فتوح البلدان ، ٣٤٢.

(١٦)هناك ضرورة لدراسة عوامل نماء وازدهار المدن العربية الاسلامية بشكل اكاديمي .

(١٧)اليعقوبي ، البلدان ، ٢٥؛ابن الفقيه ، البلدان ، ٢٨٦؛ الطبري ، محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، (بيروت ، دار التراث ، ١٣٨٧هـ)، ٢٣٨/٩؛ ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ): المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢م)، ٧٤/٨.

(١٨)الخطيب البغدادي ، أبو بكر احمد بن علي بن ثابت بن علي : تاريخ بغداد ، (بيروت ، دار المغرب العربي ، ٢٠٠٢م)، ٣٧٥/١.

(١٩)اليعقوبي ، البلدان ، ٢٥؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٤/٨؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام التدمري ،(بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣م)،٣٤/٩.

(٢٠)عن عواصم العباسيين قبل بغداد ، ينظر : العميد ، طاهر مظفر : بغداد مدينة المنصور المدورة ، (بغداد ، منشورات المكتبة الأهلية ، ١٩٦٧م)، ١٠٥-١١٠.

(٢١)الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ، ٣٧٥/١؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٤/٨.

(٢٢)اليعقوبي ، البلدان ، ٢٥؛ اسحق بن الحسين المنجم ، آكام المرجان ، ٣٣-٣٤؛الطبري ، تاريخ ، ٢٣٨/٩؛ ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين : النجوم الزاهرة في

ملـوك مصـر والقـاهرة ، (القـاهرة ، وزارة الثقافـة والإرشـاد القـومي دار الكتـب ، د.ت)، ٣٤٠/١-٣٤١.

(٢٣)العلي ، صـالح احمد : معالم بغداد الإدارية والعمرانية ، دراسة تخطيطية ،(بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٨م)، ٢٣.

(٢٤)ابن الفقيه الهمداني ، البلدان ، ٢٨٦؛ والشروي هو احمد بن محمود الشروي أبو العباس حمو أبي العباس الوراق الذي شارك في بناء بغداد، الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ٣٨٠/١، ٣٦٩.

(٢٥)اليعقوبي ، البلدان ، ٢٥؛ الطبري ، تاريخ ،٢٤٠/٩ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤٥٩/١؛ ابن الوردي ، سراج الدين (ت٦٩١ أو ٨٦١هـ): عجائب البلدان من مخطوط فريدة العجائب وفريدة الغرائب ، تحقيق محمود زناني، (عين شمس ، د.ت)، ٨٢/١؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت٨٠٨هـ): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاذة ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)، ٧٢.

(٢٦) ابن الفقيه الهمداني ، البلدان، ٢٨٦؛ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ٣٨٢/١.

(٢٧)الطبري، تاريخ ،٢٤٠/٩-٢٤١.

(٢٨)اليعقوبي ، البلدان ، ٢٦؛ إسحاق بن الحسين المنجم ، آكام المرجان ، ٣٤؛ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ٣٨٣/١؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٤/٨.

(٢٩)الطبري ، تاريخ.٢٤٠/٩.

(٣٠)اليعقوبي ، البلدان ، ٢٦؛الطبري ،تاريخ ، ٢٤٠/٩؛ ابن الفقيه الهمداني : مدينة بغداد ، ٣٢.

عن شروط بناء المدن ينظر : ؛ الطبري ، تاريخ ،٢٣٩/٩وما بعدها .

(٣١)إسحاق بن الحسين المنجم، آكام المرجان ، ٣٣.

(٣٢)عبيد ، طه خضر : من بغداد الى القسطنطينية الاتصال والتأثير الحضاري ، (الموصل ، مطبعة العلا ، ٢٠٠٦م).

(٣٣)اليعقوبي ، البلدان ؛ الطبري ، تاريخ ، ٢٤٠/٩ وما بعدها ؛ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ،

(٣٤)محمد ، حماد : تخطيط المدن القديمة وتاريخه ، (القاهرة ، مطبعة المعرفة ، ١٩٦٥م)، ١٠٥؛ليسنر ، يعقوب : خطط بغداد في العهود العباسية الأولى ، ترجمة صالح احمد العلي ، (بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٢م)، ١٨من المقدمة .

(٣٥)عرف عن أبي جعفر المنصور اقتصاده حتى انه كان يلقب بابي الدوانيق أو الدوانيقي ، والدانق سدس الدرهم ، الطبري ، تاريخ ، ٢٤١/٩؛ السيوطي ، جلال الدين : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،(بغداد ، مكتبة الشرق، ١٩٨٢م)،٢٥٩.

(٣٦)الاصبهاني البغدادي، أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الظاهري (ت٢٩٧هـ): الزهرة ، ٣/١؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ١٤/٢.

(٣٧)ابن الفقيه الهمداني ، البلدان ، ٢٧٨؛

(٣٨)العاملي ، محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمداني : الكشكول ، تحقيق محمد عبد الكريم النمري ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨م)، ٢١٦/٢.

(٣٩)الدوري ، عبد العزيز : العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي ، (بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٩٧م)، ٨١.

(٤٠)إسماعيل ن دراسات في جغرافية المدن ، ٣٦٨.

(٤١)عبيد ، من بغداد الى القسطنطينية ،

(٤٢)الدوري، العصر العباسي ، ٧٧؛ كريزويل ، ك: الآثار الاسلامية الأولى ، ترجمة عبد الهادي عبلة ، (دمشق، دار قتيبة ، ١٩٨٤م)، ٢٣٠، ٢٣٢؛ ويتفق رأينا مع غازي رجب الذي يرفض تأثر بغداد بأية مدينة أخرى ، رجب ، غازي ، العمارة العربية في العصر الاسلامي في العراق ، (بغداد ، جامعة بغداد – كلية الآداب ، ١٩٨٩م)، ٨٧.

(٤٣)الطبري ، تاريخ ،٢٤٠/٩.

(٤٤)إسماعيل ، دراسات في جغرافية المدن ، ٤٣٧.

(٤٥)عن فيضانات بغداد ، ينظر ، احمد سوسة : فيضانات بغداد في التاريخ ، القسم الأول ، (بغداد ، مطبعة الأديب ، ١٩٦٣م).

(٤٦)اليعقوبي ، البلدان ، وللمؤلف ، تاريخ ، ١٨٧/٢ ،٣٨٧؛

(٤٧)ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ،نشر دي خويه ،(ليدن ، بريل ، ١٩٠٦م)، ١١٤،١٧٥؛ الطبري ، تاريخ ؛ قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي ، (بغداد، دار الحرية ، ١٩٨١م)، وللمزيد عن ملطية : عبيد ، طه خضر عبيد : ملطية ثغر الجزيرة الأول ،مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية ، العدد(٥) ، ٢٠٠٥م.

(٤٨)الطبري، تاريخ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ،(بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة ، مطابع السراج ، ١٩٨٠م)، ٢٦٣.

(٤٩)اليعقوبي ،تاريخ ،٢٦٠/١ ؛ مؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري : أخبار العباس وولده ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار ألمطلبي ،(بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢)، ١٧٣-١٧٤.

(٥٠)عبيد ، طه خضر عبيد : الرقة عاصمة الخليفة هارون الرشيد الثانية ١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) ، مجلة التربية والعلم ، الموصل ،المجلد (١٧)، العدد (٣) ،٢٠١١م.

(٥١)الحميري ، الروض المعطار ، ٢٦٣.

(٥٢)ابن العديم ، عمر بن احمد بن هبة الله ، كمال الدين : بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٨م)، ١٨٦/١؛ للمزيد عن طرسوس ، الطائي ، سناء عبد الله عزيز : مدينة طرسوس ودورها في التاريخ العربي الإسلامي ، ١٣٢-٣٥٤هـ/٧٨٨-٩٦٥م ،(الموصل ، دار ابن الأثير للطباعة والنشر ، ٢٠٠٨م).

(٥٣)الخزرجى، علي بن الحسن بن وهاس: العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من ملوك ، صنعاء ، وزارة الاعلام والثقافة ، ١٩٨١، ٩٧.

(٥٤)ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة : تاريخ المستبصر القسم الأول والثاني ، تصحيح اوسكار لوفقرين ، مطبعة بريل ،ليدن ،١٩٥١، ٧١/١.

(٥٥)شمس الدين ، أبو عبد الله محمد بن احمد ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نشر دي خويه ، (ليدن ، بريل ، ١٩٠٩م)، ٨٤-٨٥.

(٥٦)العميد ، طاهر مظفر : بناء مدينة زبيد في اليمن ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد(١٣)، ١٩٧٠، ٣٤٢-٣٤٣.

(٥٧)عبيد ، من بغداد الى القسطنطينية .

(٥٨)الحداد ، عبد الله عبد السلام صالح " اثر تخطيط مدينة بغداد على تخطيط المدن الإسلامية في اليمن في العصر العباسي – مدينة زبيد نموذجا " مقدم ضمن أعمال الندوة العالمية الخامسة لدراسات الجزيرة العربية ، منشورات جامعة الملك بن سعود ، الرياض ، ٢٠٠٦.

(٥٩)إقليدس : كتاب المبادئ ، الكتاب الأول ، حد ١٥، Definition ,Book (1,Elements 15)، وإقليدس هو ابن نومطرس بن برنيقس من الفلاسفة الرياضيين ، يوناني الأصل ظهر حوالي سنة ٣٠٠ق.م واشتهر في علم الهندسة وله عدة كتب أشهرها علم الهندسة : ابن النديم : الفهرست ، ٣٧١-٣٧٢.

(٦٠)العميد ، مدينة بغداد المدورة " ٢٤٣.

The Dimension of the Circular Shepe in Islamic Arab City in the Abbasid period (132-247A. H./ 749-861 A.D.)

Professor Dr. Taha Khudeir Ubaid

University of Mosul- College of Education for Humanities

Abstract

There are many Shapes and designs of Cities , and the cities took systemic and non systemic architectural Shapes like Square , round , rectangle. ect.

This paper aims at shedding light on the Circular Shape of Islamic Arab cities, and its military, natural, political, and economic dimensions , Baghdad IS Chosen to be a sample of circular cities in the First Abbasids period , such as Meltine , Tarsus , Zabed , ect,